أسفار العهد الجديد المنحولة شهادة على عصرها

الأب أيوب شهوان
أستاذ مادّة الكتاب المقدّس
جامعة الروح القدس –
الكسليك

١ – قانون كتب العهد الجديد

لم يكن لدى الرسل أو خلفائهم اتفاقٌ مشترك أو نيّة في أن يكون هناك مؤلّف مشترك يُترَك لمن يأتي بعدهم. لم "يُصنَع" القانون و لم "يُخلَق"، ولكنّه نما تدريجيًّا. والأسفار التي يتكوّن منها القانون هي الآن: أناجيل أربعة، أعمال الرسل، إحدى وعشرون رسالة، ورؤيا واحدة. هذه كلّها كانت منفصلة أوّلاً، ومستقلّة الواحدة عن الأخرى، في أوقات وظروف متنوّعة، بهدف سدّ حاجة ذات وجهين: تبشيريّ وليتورجيّ، علمًا أنّ لكلّ سفرٍ تاريخًا مختلفًا وخاصًّا به.

من ناحية ثانية، كانت الكلمة المكتوبة، وتبقى، فقط وسيلةً مكمِّلة في ما يتعلّق بنشر الإنجيل، إذ "ينشأ الإيمان من التبشير" (رو ١٠: ١٧). في الواقع، كانت كلمة المسيح يسوع، عند نشأة الجماعة وتَكَوُّنِها، القاعدةَ الوحيدةَ الرابطةَ والجامعة.

من إطار نصّ غل ٦: ١٦ نستنتج أنّه، بالنسبة إلى المؤلِّف، هناك سلطة واحدة، عليها يستطيع المسيحيّ أن يثبت وينظّم مسلكه: إنّه يسوع المسيح. بالطبع، لا ينفي بولس الرسول سلطة العهد القديم؛ وهذا الأخير لا يمكن تفسيره بمعزل عن المسيح، كونه قد أوحِيَ كي يوصل إلى المسيح.

إستنادًا إلى لو ١: ١، نعرف أنّه، في البداية، كانت توجد مؤلّفات أخرى "عديدة".

٢ – لا جدّية تاريخيّة في الأناجيل المنحولة

هناك نقص في الجدّيّة التاريخيّة في الأناجيل المنحولة، وهذا من جملة أسباب رفض الكنيسة لها. ماذا يوجد أكثر أصالة وانسجامًا مع رسالة المسيح من موهبة مغفرة الخطايا والخلاص؟ هذا هو الموضوع الرئيسيّ للأناجيل القانونيّة، لكنّنا لا نجده في الأدب الإنجيليّ المنحول.

إنّ عمليّة الاختيار التي قامت بها الكنيسة، كانت بالفعل عملاً نقديًّا من الدرجة الأولى.

٣ – أدبٌ غير متناسق

الأدب المنحول، من حيث أصوله، وأوضاع كتابته، وتناقله، وتحولاته في المدّة الطويلة وفي أصقاع متنوّعة، لا يشكّل مجموعةً متجانسة؛ فالأدب المنحول يشمل بلدانًا عدّة لكلٍّ منها ثقافتها، الأمر الذي يجب أن يحول دون إعطاء تحديد أدقّ لهذا الأدب بشكل عامّ.

يمثّل الأدب المنحول جزءًا لا يُستهان به من الأدبَين اليهوديّ والمسيحيّ القديم.

٤ – تقسيم مُربِك

تنقل المؤلّفات المنحولة عقائد متنوعة، وتتضمّن رؤى ليست غريبة عن الكتب القانونيّة، وتقترح سلوكًا ومواقف معيّنة، الخ. إحدى أهمّ الأسباب الرئيسيّة للتآليف المنحولة في القديم كانت في الواقع ضرورة تقديم حلول لمسائل كانت من دون جواب أو غير ذلك. لقد بدا أن لا مفرَّ من الإيحاءات والرؤى حيثما كان التقليد يبقى صامتًا، تُحَقِّق هذا البرنامجَ الفكريَّ والمجرّدَ بطريقة محسوسة، وروائيّة، وأحيانًا شعبيّة. من الطبيعيّ إذًا أن تكون مواضيع هذه الروايات، أو أبطالها، هم مَن يفرضون تقسيم المؤلّفات المنحولة، كما أيضًا توزيع نصوصها. لكن، في الواقع، يشكّل تداخل المواضيع والأشخاص بين المنحولات عقدة لا يُستهان بها في توزيع هذه الأخيرة إلى مجموعات متمايزة، لكنّ هذا لن يحول دون محاولة اعتماد تقسيمٍ ما لها.

٥ – تكوين الأسفار المنحولة

ليست قصّة تكوين القانون مختلفة عن قصّة تكوين الأسفار المنحولة. لقد ابتدأ هذا النوع الأدبيّ، في العصر ذاته تقريبًا، كتعبير عن التقليد الحرّ والوافر، مع آخر الأسفار في الترتيب الزمنيّ للقانون عينه، في عصر لم يكن فيه هذا الأخير قد وُجِد رسميًّا بعد، وهذه الأسفار لم يكن ممكنًا تسميتها "منحولة" بالمعنى الذي أُعطِيَ لها لاحقًا كنصوص يجب رذلها لأنّها تحيد عن جوهر رسالة يسوع الخلاصيّة. لقد نما هذا الأدب واستمرّ، وأصبح في ذهن مؤلّفيه مكمِّلاً للكتب القانونيّة التي كانت تسير نحو فرض ذاتها رسميًّا.

ترتبط قصّة وضع الأسفار المنحولة في الكنيسة إذًا وتُفهَم بطريقة أجلى وأوضح من خلال قانون الكتب المقدّسة.

انتهى التمييز الواضح بين ما هو رسوليّ أو أصيل، وبين ما هو منحول، بسبب الأدب الذي جاء لاحقًا، كي يعطي لكلمة "منحول" معنى احتقاريًّا، ومعنى سلبيًّا، غيرَ أهلٍ لأن يكون على مستوى الوثائق المسيحيّة القديمة.

لا تقبل الكنيسة، ولا بأيّ شكل من الأشكال، المؤلّفات التي وضعها الهراطقة أو المنشقُّون وأقرّوها.

موقف الكنيسة إذًا هو التالي: ما هو مزيّف وهرطوقيّ يجب أن يُدحَض ويُرذَل ويُشجَب؛ هكذا فقط يمكن الدفاع عن كنز الوحي. من المحتمل أن يكون الرسل قد أتوا العجائب والمعجزات التي تخبر عنها الكتب المنحولة؛ لكن ما يجب رذله هو "المجادلات والتأكيدات ذات المعاني الشرّيرة"، والتي هي من وضع الهراطقة. يحذّر إيرونيموس من الشطط، والتناقضات، والجمل ذات الذوق السيّء، ويقترح إزالة هذه المؤلّفات.

بالرغم من بعض الأحكام الصادرة عن أشخاص ذوي سلطان، والتي توازي الحكم المطلق، فقد استطاع الأدب المنحول أن ينعم ببعض حقّ المواطنيّة في الكنيسة، وبالتالي بممارسة تأثيره، إنْ في نطاق الفنّ الكنسيّ، وإنْ في الليتورجيّا، وفي مؤلّفات الكتّاب المسيحيّين، وفي التقوى المسيحيّة. يبدو مستبعَدًا تقريبًا أنّ معلومات عزيزة على الشعور المسيحيّ، ليس لها كأساس سوى النصّ المنحول، نذكر منها: اسمَي والدَي العذراء، يواكيم وحنّه، عيد تقدمة مريم الطفلة إلى الهيكل، مولد يسوع في مغارة ووجود الثور والحمار فيها، أسماء المجوس وعددهم، قصّة ديماس ويسْتَاس، اللصّين اللذين صُلبَا مع يسوع، اسم لونجين، الجنديّ الذي طعن صدر يسوع، قصّة فيرونيكا، استشهاد أندراوس، الخ.

٦ – لغة منحولات العهد الجديد

اللغة الشائعة اليونانيّة κοινη هي اللغة الأكثر استعمالاً من قِبَل مؤلّفيّ الأسفار المنحولة. لكن برزت سريعًا ترجمات إلى اللغات القديمة، وبالتحديد إلى السريانيّة، والقبطيّة، والأثيوبيّة، والأرمنيّة، إلخ.

٧ – نشر منحولات العهد الجديد

بدأ العمل النقديّ للمادّة المنحولة في القرن التاسع عشر، فصدرت نشرات، ودراسات، إلخ. وبالرغم من غنى المادّة المنحولة، ينبغي أن نلفت الانتباه إلى أنّ قسمًا كبيرًا منها قد ضاع.

٨ – لا لإهمال منحولات العهد الجديد!

لم يأخذ واضعو الأناجيل، ولأسباب مختلفة، كلّ ما كان متداولاً في التقليد الذي سبقهم. هذه الفجوات أدركها يوحنّا بالذات: "وهُناكَ أُمورٌ أُخرى كثيرةٌ أتى بِها يسوع، لو كُتِبَت واحِداً واحِدًا، لَحَسِبتُ أَنَّ الدُّنْيا نَفْسَها لا تَسَعُ الأَسفارَ الَّتي تُدَوَّنُ فيها" (٢١: ٢٥). هناك احتمال إذًا أن تكون أجزاء من التقليد ذاتها قد حُفِظَت، بالإضافة إلى كونها أقوالاً أو أعمالاً منفصلة عملها يسوع، في مؤلّفات متنوّعة من حيث أنواعها الأدبيّة، ومنها بالتالي المؤلّفات المنحولة، التي يعود بعضها إلى العام ١٣٠–١٥٠ ب. م.؛ نحن إذًا أمام مادّة لها قيمتها بحدّ ذاتها، وإن لم يكن بمستوى الأسفار القانونيّة. وإذا ما قُبِلَ هذا المبدأ، تصبح هذه الأسفار مصدرًا لمعلومات إضافيّة ومفيدة عن بدايات الكنيسة وتفكير عدد من أبنائها حول حياة المسيح ورسالته.

إنّه لخطأ فادح يقع فيه كاتب تاريخ الكنيسة، والعالِم بالآباء، والباحث في الليتورجيّا، والعقيدة، والفنّ الكنسيّ، وغير ذلك، إذا ما أُهمِلَ الأدب المنحولّ؛ فهذا الأخير هو شهادة على عصره، ويتمتّع بأهمّيّة خاصّة لأنّه يعكس رأي شخص أو جماعة معيّنة، يحسن بنا أن نتعرّف إليها وإلى أهداف واضعيها، كما إلى مواقف آباء الكنيسة من بعض منها، وإلى تعليم الكنيسة الرسميّ في هذا السياق.